من نوابغ الكتّاب الأتراك هاليكارناس بالكجي سي ١٨٨٦ـ١٩٧٣

٣-٣
إحسان الملائكة

في ازمير بنى بالكجي منزله الذي سيقيم فيه مع اسرته ، مثلما فعل في بودروم ، وفي هذا المنزل أقام حتى وفاته وبعد وفاته احتفظت عائلته بالمنزل ، ولم تتخل عنه. استمر بالكجي في عمله دليلاً سياحياً ، لكن ذلك لم يؤثر في نشاطه الادبي ولا الفني اذ وصل الانتاج والنشر وبيع رسومه الكاريكاتورية حتى اصبح من مشاهير الكتاب في تركيا ، وقد مثل بلاده في عدة مؤتمرات ادبية في الخارج ، ومع ذلك فإنه بقي دائماً في ضيق مالي ، وبسبب قلة موارده المالية اضطر الى العيش في محلة شعبية.

شخصية بالكجي

اول ما يلفت النظر في شخصية بالكجي تنوع ميوله، وسعة آفاقه، كان مدلها بجمال الطبيعة ، وكفنان مبدع كان مرهف الاحساس ، وتتجلى عواطفه الحادة في شخصيات رواياته فهم يبرقون ويرعدون وتفور دماؤهم كالنار، شأنهم شأن الطبيعة التي ظل مندمجاً فيها، وكان يعلم الناس كيف يفهمونها ويحبونها ، كان الى ذلك مؤرخاً متخصصاً في كل مايتعلق بالاناضول ، كان في رواياته ذا اسلوب متميز خاص به ، من ناحية اخرى ظل دائماً شديد العطف على فقراء الناس ، يعمل معهم في أعمالهم العضلية التي يستنكف منها المثقفون مع انه خريج جامعة اوكسفورد وكان شخصاً عملياً يزرع الارض ويطعم الاشجار والزهور، يبني داره بيديه ويصبغه ويصنع اثاثه ، ويجد في كل ذلك لذة وسروراً..

ويقول صديقه الكاتب (عصمت زكي ايوب اوغلو) : لم يكتب بالكجي بالحبر وانما بعصارة قلبه، الكتابة عنده كالحياة لا حدود لها ،كان يمقت كل الحدود والقيود حتى الحدود المقامة بين البلدان لان الطبيعة لا تضع حدوداً بين الاشياء ، وحين يغرق القارئ في صفحات مؤلفاته يشعر وكأن (بروميثيوس) ماثل امامه بكل كبريائه وصلابته، مثل بروميثيوس كان حب بالكجي للناس يدفعه لبذل كل شيء.

مهما كان صعباً ، من أجل إيصال المعرفة اليهم.

عرف عن بالكجي ولعه باستعمال كلمة (مرحبا) العربية احياناً بمدلولها الاصلي ، واحياناً كثيرة اخرى، في مناسبات لاصلة لها بمعناها الاصلي ، فهو يقولها حين تأخذه الدهشة وهو يستخدمها عند ختام مقالاته! ويستعملها عند توديع اصحابه، وحين يطرأ خاطر على ذهنه. وهلم جرا، من اجل هذا التصقت لفظة "مرحبا" حتى صارت توأماً لاسمه!

تجلى عشق بالكجي للطبيعة في آثاره المكتوبة جميعاً ، هذه مقتطفات من مقالة كتبها مستعيداً ذكريات ليلته الاولى في منفاه "بودروم" (سرت في فناء منزلي الذي استأجرته على ساحل البحر، ثم فتحت الباب المطل على البحر، فياللروعة ! أي منظر خلاب مثل امام عينيّ! شواطئ البحر الممتدة بعيداً، بعيداً، تتلألأ باضواء المنازل المتراصة على طولها، والحدود النائية لجزر البحر امتزجت بحمرة الشمس المودعة للنهار، فتحول لونها الى البنفسجي الخفيف ، وخيوط اشعتها الملونة راحت تلهب قمم الامواج المتصاعدة الى الاعلى ، كانت امواج البحر هائلة القوة تضرب بعنف اساسات منزلي فلا ارتعب وكأنني اعرفها من عهد بعيد، وبين ذرات الرمال على الشاطئ ابرزت شجيرات الفطر رؤوسها باستحياء ، تشم عطر الهواء النقي الذي لم يعرف عفونة التلوث بعد..منذ طفولتي،لم ابك ابداً بمثل هذا التأثر الذي وقع لي الليلة ، ووجدتني انتحب، وانا جاث على ركبتي عند عتبة الباب، ثم تحول ذهولي بسحر المنظر الى شعور بالامتنان لحسن حظي الذي جاء بي الى هذا المكان الرائع حتى نسيت تماماً احساس الالم بالنفي ، وإزعاجات الاشهر الستة السابقة. حشرت اصابعي في الرمل ، ولمست نباتات الفطر، وقد بدت في عيني اشبه بأحجار اللؤلؤ في حسنها ، ومن دون وعي مضيت اغترف براحتي ذرات الرمل أمسح بها وجهي وكأنني اباركه بالتراب المقدس على طريقة الانسان القديم في المعابد. وكان جلال البحر وحسن جزره يتفوقان على اروع ما رسمه خيال أي فنان، هنا يمكن ان يعيش الانسان مدى حياته حتى على الخبز والماء وحدهما).

آثاره الأدبية وآراؤه

في كل كتابات بالكجي ظل يحاول إثبات نظريته القائلة بأن ابناء الاناضول "ابونيا" هم الورثة الحقيقيون لحضارة ايونيا القديمة التي تنسب ، ظلماً الى الإغريق ، فإذا كانت هذه النظرية صحيحة فما الذي يستفيد منها اهل الاناضول؟

يقول الاديب التركي الشهير "عزيز نسين":

(ان آراء هاليكارناس بالكجي سي، شأنها شأن آراء كمال طاهر) ستبقى مثار جدل حاد بين المثقفين المهتمين بالتاريخ والفلسفة والسياسة، كما ستكون منبعاً لاينضب للافكار الجديدة المهمة.. ومع ان بالكجي وكمال طاهر كانا من الكتاب الواقعيين الا انهما تجنبا ، بمهارة فائقة ، ان يمثلا أي حزب سياسي من الاحزاب المتصارعة في تركيا).

ويقول "بدري رحمي ايوب اوغلو" صديق بالكجي " لا أعرف كتاباً يبعث السرور الشديد مثل كتاب بالكجي المعنون، هيه يا وطني العظيم".

وتقول الكاتبة عذراء ايرهارت ، مريدة بالكجي مايلي: . بعد قراءتي كتابات بالكجي وتسلمي رسائله الموجهة إلي بشأن نظريته الشهيرة عن حضارة الاناضول صرت اشعر بأنني اعرف بشكل شخصي عظماء ابنائها القدامى خاصة هوميروس ، وهيراقليطس ، وطاليس وديوجينيس ..الخ وبهذا اصبحت احد اعضاء جماعة بالكجي ، وتطوعت مثلهم للدفاع عن نظرته والسعي بإصرار لنشرها بين ابناء وطننا".

في شهر آب من سنة ١٩٤٦ أسس بالكجي جمعية ذات صفة معنوية ، أي غير رسمية ، اطلق عليها صديقه صباح الدين ايوب اوغلو اسم (المسافرون الزرق)، وقد رشح لرئاستها ، وكان من اعضائها "صباح الدين ايوب اوغلو" واخوه "بدري رحمي ايوب اوغلو ، والكاتب المعروف وداد غون يول" والشاعر الشهير نجاتي جمالي ، وآخرون وقد نظم بالكجي جولة بحرية على ظهر زورق بخاري، ينطلق بهم من مدينة بودروم ، ويمضي مخترقاً بحر ايجة ، للبحث والاكتشاف. وكان عدد المشتركين في الرحلة لايتجاوز الثلاثين شخصاً كلهم من الرجال، وقد اصبحت هذه الرحلة تقليداً يتكرر في صيف كل سنة.. كان على المسافرين ان يبحثوا عن آثار حضارات الاناضول التي ازدهرت على شواطئ بحر ايجة، وينقبوا عن السدود والمسارح والقصور والاضرحة الآثارية كي يقدموا الادلة المنشودة على صحة نظرية بالكجي التي ترى ان تلك الآثار تخص المواطن الاناضولي وليس الاغريقي لانها موجودة في ارض الاناضول ، في وقت لم يكن للجنس التركي أي وجود بها، وذلك ان الترك لم يهاجروا الى آسيا الصغرى الا مع تحرك القبائل السلجوقية نحو الغرب، عندما ضعفت الدولة العباسية اثناء حكم البويهيين وغيرهم من الحكام الاسلاميين غير العرب، الذين حكموا البلاد الاسلامية في العصر الوسيط، أما قبل السلاجقة فلم يكن في آسيا الصغرى غير الشعب الذي كان العرب يطلقون عليه اسم "الروم" ومعروفة قصة حرق المعتصم مدينة عمورية وتفاخره بأنه قضى عليها بجنوده (من الروم) وما أعقب ذلك من مدح ابي تمام لواقعة عمورية في قصيدته الشهيرة (السيف أصدق انباء من الكتب)..وللمتنبي ابيات مدح كثيرة لسيف الدولة الذي واصل حملاته على "بلاد الروم" وما اشهر بيته المعروف في وصف احدى تلك المعارك: .

فنحن في جذل والروم في وحل
والبر في شغل والبحر في خجل

معلوم ان المؤرخين الغربيين لاينكرون ان اشهر المفكرين والادباء والفلاسفة الاغريق نشأوا وازدهروا في ايونيا . الاناضول ، وفي مقدمتهم : هوميروس وهيرودون وطاليس وهيراقليطس ..الخ ممن يرفعهم الغربيون الى مصاف الانبياء في العظمة والعبقرية ، لكن بالكجي يرى ان هؤلاء اناضوليون، ايونيون ، فبأي حق يعدونهم اغريقياً؟!

ان اهم العباقرة الذين يجب ان ننسبهم الى حضارات آسيا الصغرى هم عدا من ذكرنا سابقاً،الفلاسفة فيثاغورس ، وديمقريطس ، وابيقور، وابكتيتوس، وانا كسيما ندر ، وبروتاغوراس، والشعراء، بندار ، وهزيود ، والشاعرة سافو، بنت جزيرة "ليسبوس" القريبة من سواحل ايونيا، وهناك ايضاً الجغرافي "سترابو" والطبيب ابقراط ..الخ.

يعد بالكجي اول اديب تركي يفسح للبحر والبحارة اكبر مساحة في رواياته، اذ لم يهتم أي كاتب آخر قبله بهذه الفئة من الناس ، لان غالبية الكتاب بعيدون كل البعد عن كل مايخص البحر وطرق العيش فيه، يتحدث بالكجي عن نفسه فيقول: "انا خالق البحر ومخلوقه".

كان بالكجي في حياته وفي آثاره كلها انسانيا ، وكان يدعو الى المساواة والإخاء بين الشعوب ، كما كان يطالب بتغيير طرائق التعليم ومناهجه في المدارس والجامعات بحيث يوجه وجهة إنسانية تدعو الى المحبة والسلام وتثبيت الثقة بين البشر وكان شديد النفور من التعصب وضيق الافق وروح العدوان التي تميز الانظمة الديكتاتوررية في كل العصور. وكان متأثراً بالمذهب التنويري في القرن الثامن عشر، كما كان شديد الاعجاب بكبار كتاب القرن العشرين الذين نزعوا نزعة انسانية مثل برتراند رسيل وبرنارد شو وتوينبي وغيرهم.

يؤيد بالكجي العلماء الغربيين الذين يرون ان السيادة في كل العصور البدائية، كانت للاناث وليس للذكور. بدليل انتشار عبادة إلهة الخصب والامومة في كل ارجاء الكرة الارضية قديماً.

الرحلة الاخيرة

في سنة ١٩٧١ اشتدت على بالكجي اعراض مرضه المزمن: السرطان ، فنصحه الاطباء بالراحة لكنه استمر في اعماله العادية وقد اغمي عليه اثناء عمله دليلاً سياحياً، ولم يكن يخشى الموت ومما ورد في وصيته الفريدة الغريبة مايلي: فوق قبري لاتضعوا المرمر او الاسمنت ، ابحثوا عن صخرة ناتئة ، وضعوها فوق القبر الترابي، لاتكتبوا عليها أي تعريف بمن يرقد تحتها فقط ثبتوا الصخرة جيداً ! لا اشترط ان يكون ضريحي فوق جبل او مقابل بحر، فلن أسمع أو أرى او أحس شيئاً على ان روحي تعيش ابداً مع البحر، وسأراه دوماً بعين قلبي ، ترى ماذا سأكون بعد الموت؟ ثمرة تين او زهرة زنبق؟

لا أحد يرى كل ما اعرفه انني بشخصي هذا لن اكون !

لعل البشر سيرسلون موتاهم في المستقبل الى الفضاء الخارجي، اما الآن فمصير ابداننا الى التراب يصنع بها ما يشاء ، واتمنى ان يكون بدني ذا فائدة للطبيعة..ما اهمية ان نبقى في صورة انسان؟ فلتتحول اجسادنا الى اية صورة اخرى.

آخر كلمة نطق بها بالكجي قبل وفاته كانت كما يلي: "ارى الزرقة ..أشم العطر، أرج الزهر في أنفي"

من اهم مؤلفاته الروائية والقصصية: . "مرحباً ايها البحر، الرئيس طرغوت، اعماق إيجة ، يحيا البحر ، الجزيرة الضاحكة، مغتربو البحر ، صوت الاناضول ، المنفى الازرق " وله كتب مترجمة الى التركية عن الآداب الاوروبية.

العراق بقلوب لبنانية (تجربة حبيب صادق)

ريّا هاني فحص
كاتبة لبنانية

للعراق في قلوب الكثير من اللبنانيين مكانة صنعها الزمان والمكان، قلوبهم تهفو إليه ليس فقط لأن الشمس هناك اجمل والظلام هناك اجمل لأنه يحتضن العراق، على حدّ قول السياب، بل لأن لديهم هناك اهلاً واصلاً وجذوراً..في كربلاء والكوفة والكاظمية وسامراء، وتاريخ مشترك من الظلم والقهر والتقتيل منذ عاشوراء الى الانتفاضة الشعبانية. وتمتد مروحة العاشقين من طلاب الدراسة الدينية في النجف الى الشيوعيين و القوميين السابقين والبعثيين الخائبين ، ضحايا سراب الامة الواحدة.

حبيب صادق الشاعر والاديب والنائب السابق في مجلس النواب اللبناني ، رجل سياسة ويساري عتيق وصديق للحزب الشيوعي لأكثر من اربعين عاماً متواصلة. ولد حبيب صادق في جبل عامل في لبنان وليس في النجف.. نشأ نجفياً بالرغم من انه لم ير النجف قبل العشرين من عمره. يذكر جيداً ان "الحياة في بيتنا لم تكن مختلفة نهائياً بل لم تكن منفصلة عن تلك الحياة التي عاشها والدي واجدادي في النجف، طعامنا كان عراقياً وشاينا كان شاياً عراقي المذاق والاسلوب، بل ان كثيراً من الإلفاظ والجمل التي كانت تشوب حديثنا اليومي كانت عراقية ، اغاني الامهات لاطفالهن، كانت عراقية ، هدهداتنا قبل النوم، كانت عراقية النغم ايضاً، والمفردة حديث الاجداد ، حديث الآباء للابناء في ليالي السمر صيفاً وشتاء جله كان حول حياتهم وتجاربهم في النجف والكوفة وكربلاء".

وتكمن الغرابة في حكاية حبيب صادق مع العراق في كونه لم ير العراق الا بعد ان تخرج من الثانوية العامة" حين تمكنت من ذلك مادياً تحديداً، فما ان اكملت دراستي وعينت مدرساً كان الامر الاول الذي قمت به في عطلة سنة اولى عمل عام ١٩٥٦ هو زيارة العراق، احاديث الاهل حول العراق في طفولتي اشاعت في وجداني حنيناً وتوقاً للمعرفة ولزيارة الاماكن المقدسة التي تركت في نفوس آبائنا وأجدادنا ذلك التعلق الشديد، نقلوه إلينا.

والدي حين غادر العراق قال فيه قصيدة ترشح حزناً وألماً وتظهر مدى العلاقة الحميمة والعميقة بالنجف وفضائها وعلاقات الناس فيما بينهم وبها". لقد خلقت الصور المحمولة والحياة المنقولة شفهياً توقاً لدى حبيب صادق للمعاينة ، معاينة الاماكن لرؤيتها عن قرب، لتلمسها والتماس معها، لمبادلتها الحب والشوق، فقصد العراق للتعرف على احد اوسع مكونات شخصيته عاطفياً وثقافياً.

" ليس النجف فقط ، بل المدن العراقية المقدسة جميعها.. حين زرتها للمرة الاولى، ولفرط ما كنت اسمع عنها يومياً، أحسست انني اعرفها ، الكوفة عاصمة خلافة الامام علي، كربلاء حيث مرقد الامام الحسين والعباس ، او الكاظمين في بغداد ، الشيء المميز في الرؤية العيانية هو حركة الناس. لا يمكن ان ينقل ذلك المشهد بروعته شفهياً ، حركة المريدين في دخولهم وخروجهم الى العتبات زرافات ووحداناً ، العفوية والتلقائية لذلك التعبير عن الحزن والحب. المقيم في الوجدان الملتهب لزوار الاضرحة ، مشهد اسرني ووقفت أتأمله طويلا.."

ذلك العراق كان في الخاص للأسر الدينية التي قصد ابناؤها النجف للدراسة الدينية في حوزاتها العلمية، لكن ذلك لايعني ان الوضع نفسه لم يكن كذلك خارج حدود هذه البيوتات او البيئة القريبة منها. بقية ناس جبل عامل كانت حياتهم اقرب الى اسلوب الحياة في شمال فلسطين وجنوب سوريا لكن علاقتهم بالعراق كانت علاقة اكثر عمقاً وتوهجاً، علاقة حب وانتماء وانشداد من الطرف نحو المركز، كان الجنوبي خاصة، ولم يزل برغم الهموم والعوائق سواء في لبنان او في العراق، لاينقطع عن التواصل مع العراق ولو كانت الرحلة محفوفة بالأخطار.

سلام على الائمة في ارض العراق.

(ظمأ قديم) الرؤية الشاسعة والاختزال السردي

رزاق عداي

(كاظم حسوني) قاص واعد منذ ان ظهرت كتاباته في مطلع الثمانينيات من القرن الماضي متفرد بصوته وموضوعته، بسرده، بعبارته المختزلة والقصيرة،، ان جملته القصصية مكثفة وأنيقة، وهو يجعلنا بمواجهة مباشرة مع المعطى للقصة (لما ازيحت قطعاتهم، عقب هجومنا المقابل، شرعنا ننتزع جثث رفاقنا المطمورة في الجليد، عثرنا على الاحياء داخل الخنادق اخرجنا اسلحة ومدافئ حديدية وخوذاً وحقائب).

وهكذا عبر الدفق السردي السريع من الجمل القصيرة استطاع القاص ان يختزل احداثاً متعاقبة وطويلة بحساب الزمن الواقعي فالفن القصصي على وجه الخصوص هو الاسلوب النثري القادر على تحمل هذه المهمة الإبداعية فميزة القصة القصيرة عن الرواية هو ميلها نحو الاقتصاد السردي ما يعني بلوغ او ملامسة الثيمة عبر وسيلة مقتدرة ومكثفة.

مجموعة (ظمأ قديم) الصادرة عن دائرة الشؤون الثقافية تحتوي سبعاً من القصص القصيرة وتكاد تكون كتيباً متكوناً من سبعين صفحة وواحدة فقط وعلى العموم وفي الابداع تخصيصا يتفوق النوع على الكم فرب قصة واحدة مكتملة البناء تتجاوز العشرات من القصص المترهلة ذات القيمة الفنية الهابطة فما يشدنا الى الفن القصصي هو مستوى الدلالة والرمز والموضوعة الاثيرة فضلاً عن حجم الولع والاندهاش المطلوبين لدى القارئ.

مجموعة (ظمأ قديم) ينطبق عليها التوصيف الاخير كما سنرى، فهذه المجموعة تتضمن حيوات مفارقة عما يطرح في الساحة القصصية فميزتها انها حيوات تقف في منطقة ما بين الواقعية وما فوق الواقعية اذا صح المفهوم. وهذا الاسلوب يظهر في الكثير من التيارات في الادب العالمي فهو ليس بالجديد تماماً ولكنه ينطوي على اشكالية لا تنفصل عن هذا النوع من الكتابة وهذا الاجراء يتم على مستوى عال من الصعوبة اذ على الكاتب ان يكون بارعاً في إقناعنا في التحولات التي تجري على الشخوص او تطورات الحدث القصصي والتي تنطوي غالباً على شيء من الفنطازيا او اللاواقعية..

فشخصية (ليلى) في قصة (طقوس قيامة ليلى المغنية) يشملها تحول او اختراق ميتافيزيقي. اذا صح التعبير. فهي المحبوبة الميتة منذ حين من الزمان تعود الى الحياة ما ان يبدأ مهول الشاب مديد القامةلنبش القبر (قبيل حلول الفجر، لما هدأ صخب الموتى، كانت المقبرة مضاءة بنور بدر مشع، وهو في غرفته خطرت في رأسه فكرة مخيفة، اذ تراءى له انه يدنو من القبر).

(فشرعت أنامله تعمل بحزم قرب الرأس يفك بحذر عقدة الكفن)

(هنيهات ودب في سمعه صوت تنفس ضعيف فاقترب واجف القلب وأخذ يمعن نظره في زرقة الضوء حتى لمح ارتعاش الحيا في المحيا النائم).

الحقيقة آن للكاتب ان يحيي الموتى ويبعث الروح فيها وان يكتب فيما هو خارق وغير طبيعي لكن المهم ان يقنع القارئ بما يبتكر ويصنع ولكن وفي الاطار العام وتحصيل الحاصل ينبغي ان يوظف كل المضامين لتعميق وتأشير دلالة ما ولتصب في معنى ما وليسمه ما يشاء لكن قدرة الكاتب ومعالجاته الفنية هي في النهاية المقرر على مكنة هذه الاجراءات في إيصال ما يريد ايصاله.

وهذه الآلية الفنية تذكرنا بالاسلوب القصصي عند ماركيز خصوصاً في روايته (مئة عام من العزلة)التي عمد فيها ماركيز لاحدى شخصياته النسوية لان تطير في الفضاء. ولكن لم نستشعر ان ما مارسه الكاتب كان امراً خارقاً للطبيعة بل تلقينا هذا الإجراء بشغف وبمزيد من الاندهاش، والادهى انه لم يضطرنا لاحتساب كتابته ضمن الكتابات فوق الطبيعة.

اعتقد ان (كاظم حسوني) في القصة بالذات أراد ان يعمق احساساً عميقاً وصامتاً وتحت السطح يتميز بكونه اتصالاً عشقياً بين الموتى والاحياء فهذا الشعوريتصف بالديمومة ولا يحطمه فاصل الموت، ومن ثم فهو ينهل من محيط المخيلة اللا متناهي ومن مخيلة جمعية تصور. الكائن الميت . بثنائية الجسد الثاوي والروح الهائمة والحائمة حول الاحياء مما يبقي على عنصر التواصل.

(وما ان يدنو من القبر حتى يتوقف مرتبكاً ينظر، يتفرس في العتمة قبل ان يجذب من جيب سرواله زجاجة عطر يفتحها.. ويريق قطرات منها فوق القبر) الحقيقة ان هذه الممارسة المعهودة لدى الكثيرين في مخاطبة الاموات وفي معاملة قبورهم وكأنهم احياء فيها تندرج ضمن العرف المتخيل عبر مجموعة من الامتثالات والتصورات ربما هي غير واقعية ولكنها تشغل حيزاً فاعلاً من المخيلة وربما هي نوع من الملاذ والوهم الضروري للأحياء.

المهم ان القاص استطاع ان يفلح تماماً في ترميم كيان قصصي رفيع في القصة المتميزة والنابضة بالحياة والمخيلة عبر اجواء متلونة فهي تارة شاحبة واخرى يخترقها ضياء الفجر وهكذا يزجنا في مناخات ليس في هذه القصة فقط انما على مدى مجموعته عبر معابر رحبة الولع السردي واضح جدا وبتمكن قصصي فبعض قصصه يكاد ينعدم فيها الحوار تماماً ولكنه . اي الحوار . يبقى يجري داخل نسيج القصة فتجليات القصة الدرامية تتحرك بنمو السرد المتلاحق ففي قصة (في انتظار المطر) نزداد شغفاً في غواية الاستغراق للارتماء في أحضان الطبيعة في محاولة للخلاص من التلوث الذي بدأ يكتنف الحياة وهو يتوجه الى اولئك (الذين نغفل عن رؤيتهم دائماً، اولئك المكبلين بالعتمة المسكونة بالعجز، المصابين بالجدب، واليأس والهزال والضمور.. هم وحدهم ابناء المطر) ان المطر في هذه القصة هو المطهر وهو الخلاص والمكان . كما يقول القاص.

كاظم حسوني

الآمن (المطر يحملني لان اخط ملامحهم، وصورهم بتأن، كائناتي المائية هذه، اسوقها من الغرف والبيوت برفقة حميمية الى العراء) الماء هنا هو عنصر التطهر في الطبيعة وهو الذي يخلص البشر من أدران الدنس هذا الذي بدأ يطوف ويدهم الحياة من كل جوانبها، السرد في القصة يحمل نيرات الشعر في الكثير من متون القصة.

(وعندما يأمنون وتغمر ارواحهم السكينة، سرعان ما يتجردون من اعبائهم الثقيلة ويأنسون به، حينئذ، ينسجون تجاربهم، ليتركوا حكاياتهم وقصصهم وآثارهم البهية) هنا يمكن ان نرصد بسهولة اللغة السردية الشفافية انها لغة عالية الإيقاع تحمل تطلع جموع وليست نبرة تكتفي بالصوت الذاتي وان كتبت بضمير الانا .

القاص (كاظم حسوني) كتب قصصاً عن الحرب ولكنني اجزم بأن كتاباته التي تصدت لهذه الموضوعة انطوت على قدر كبير من الادانة والرفض لكوارثها واهوالها ومهازلها، لقد كتب عن الحرب وفي غمرتها وبلغة مقتطعة من جذوتها وهو بارع في تصوير هذه المأساة البشرية وله امتياز في تصوير الالم . الفردي المنبعث منها والذي يأخذ معناه الانساني الشامل.

(لا أريد ان يلقى القبض علي او يجرفني الموج الآسن الى مواضعهم مع باقي الجثث الطافية أفكر بالاصحاب الذين استحالوا الى نثار محترق ودخان: ثمة رصاص يهوي من ظلام فاحم، بصعوبة ارفع رأسي المنقوع بالوحل أترصد منابع النار وأعب في جوفي هواء عفناً ثم اغوص من جديد في وحل الحفرة يأكلني حنقي على خوار جسدي).

من البديهي ان موضوعة الحرب هي من الموضوعات المهمة والبارزة في الادب العالمي وهناك من الآثار الادبية الرفيعة في هذا المجال. فالحرب تضع المرء أمام مصيره وتعني العيش عند الحافة من الحياة وهذا إحساس عارم على المستوى الوجودي لانه يعيد اكتشاف الحياة قادران فالخطر او الحدية في العيش قادر على ان يوقظا الكثير من الاحاسيس الهامدة . كما يزعم نيتشه . خصوصا في لحظات المواجهة المباشرة للموت ومن خلال قصص (كاظم حسوني) نلمس هذا النبض محتدماً وحاداً.

(هل نجوت؟ لقد تخلى عني الموت، بنشوة غريبة ازحت الجثة التي فوقي رفعت رأسي من وحل الحفرة رحت أتفرس في ظلام ممطر غامض)

في قصة (نداء اخير) يبلغ القاص (كاظم حسوني) ويجسد ذروة الخوف والرعب البشري ويلازم هذا البلوغ درجة عالية من التعبير القصصي حيث تبدأ القصة وتنتهي بكثافة سردية مجلجلة تنقطع خلالها الانفاس حيث نواجه الموت مباشرة ويتكدس الرعب من خلال جمل وسرد سريع وبجمل متلاحقة وممتلئة.

واعتقد ان القارئ العادي يستطيع ان يشارك الكاتب مباشرة صدق الرؤية ويستطيع بسهولة ان يفتح المعابر على سعتها مجمل القصة وبنائها، الموت، الظلام، الطين، الليل، الصمت، الوحشة، الرائحة النتنة لجثث الموتى، والطين، الحرائق، الدخان، الجحيم،...

تبدأ القصة هكذا:

(انا لن اموت خضت، في قلب الجحيم، قاتلت بشراسة في دوامات النار، قيدوني واطلقوا علي الرصاص خرجت من دوائر الحريق والقصف وشظايا الانفلاقات وكنت أنجو كل مرة سأعيش طويلا بعد هذه المعارك الرهيبة..)

الجملة القصصية هنا توازي التجربة ورعبها في ان تحملها بشكل عضوي ولكن القاص يسعى لأن يجعل لغته تلاحق نسيج التجربة الحي.

في قصة (الثلج الكبير) تمتلك ذات النبرة النابذة للحرب ولكن القاص هنا يستخدم الاسطورة . الحكاية من داخل نسيج القصة فلا يجعلنا نستشعر ان الاسطورة او متوناً منها مقحمة عليها من الخارج فأسطورة (دم يوسف والذئب) المعروفة يوظفها القاص هنا وهناك في تلاقح عضوي متماسك، فالقاص يثيرها عبر جمل موحية مستهدفاً غرضاً معاصراً وانياً عبر توظيف الاسطورة، وهنا تكون الحرب هي المجال الذي تخوض القصة فيه ايضا.

(الدم هو الذي استدرج فضول زائرين اشد فتكا، الذئاب التي تركت اوجارها وكانت تظهر أمامنا بغتة وعيونها تبرق في العتمة (يا يوسف! اني ليحزنني فراقه واخاف فراقك عني) (عم يعقوب، يا ابي، الاخوة جاءوا ورائي ليمسكوا بي، ويلقوني في غيابة الجب).

ومن الجدير بالملاحظة ان بعض النقاد العرب تلمسوا النقص والضعف في استخدام الاسطورة في بعض الكتابات في مختلف الاجناس الإبداعية وهذا ناجم عن إقحامها . اي الاسطورة . من الخارج للنصوص ما يغيب هذا الامر التلاحم العضوي بينهما، وهنا اود إن اشير الى قيمة الاسطورة الرمزية والتي تمكن المبدع من تاكيد التجربة الابداعية حيث يتم تجاوز البعد التاريخي لتكريس دلالة معينة.

أخيرا اود الاشارة الى قوة النثر والسرد وتدفقهما بشكل متين، كما ان الجملة محسوبة البناء فلا زيادة ولا نقصان فهي منسقة ضمن بناء مدهش.